سبيل الله

"قل هذه سبيلي أدعو إلى الله
على بصيرة أنا ومن اتبعني"
صدق الله العظيم

الإسلام والمسلمون

لفضيلة العالم الجليل العارف بالله تبارك وتعالى

الشيخ : محمد سليمان سليمان

من علماء الأزهر الشريف : تغمده الله برحمته

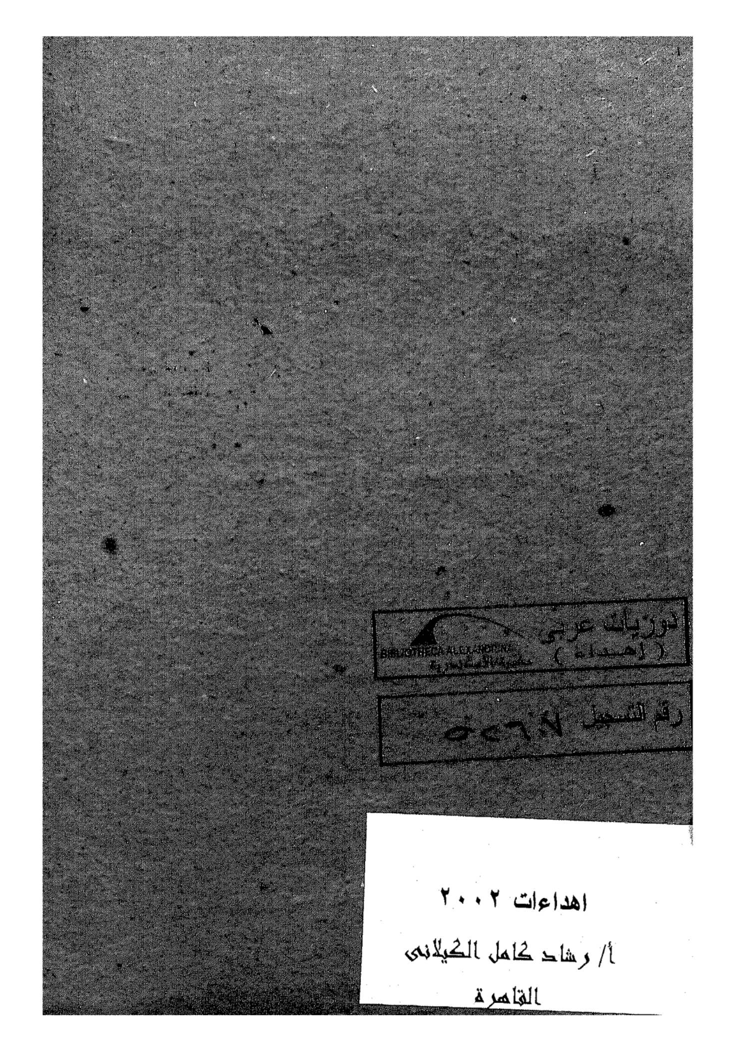
محاضرة دينية ألقاها فضيلته بدار الشبان المسلمين بسوهاج

سنة ١٣٥١ هـ الموافق ١٩٣٣ م

جمع واختيار

سعد محمد الفرشوطي

من علماء الأزهر بسوهاج


دوريات عربي
(إهـداء)
رقم التسجيل ٥٢٦٧
اهداءات ٢٠٠٢
أ/ رشاد كامل الكيلانى
القاهرة

سبيل الله

"قل هذه سبيلي أدعو إلى الله
على بصيرة أنا ومن اتبعني"
صدق الله العظيم

الإسلام والمسلمون

لفضيلة العالم الجليل العارف بالله تبارك وتعالى
الشيخ : محمد سليمان سليمان
من علماء الأزهر الشريف : تغمده الله برحمته
محاضرة دينية ألقاها فضيلته بدار الشبان المسلمين بسوهاج
سنة ١٣٥١ هـ الموافق ١٩٣٣ م

جمع واختيار
سعد محمد الفرشوطي
من علماء الأزهر بسوهاج

إلى شيخي وأستاذي

فضيلة العارف بالله تبارك وتعالى

الشيخ : حسين محمود معوض

من علماء الأزهر الشريف

وخليفة الشيخ فى الطريق

أهدى

تلك المحاضرة الدينية القيمة التى ألقاها

فضيلة شيخنا وأستاذنا العارف بالله تبارك وتعالى

الشيخ : محمد سليمان سليمان

بدار الشبان المسلمين بسوهاج سنة ١٣٥١ هـ الموافق ١٩٣٣ م

أيها السادة :

إنّ موضوع المحاضرة الليلة هو : (الإسلام والمسلمون) ـ آثرته على سواه ؛ لأن البانى لا بد وأن يؤسِّس ليضمن استمرار بنائه ؛ والطبيب لا بد وأن يُشخِّص الداء ، ليضمن نجاح علاجه ..

ولا غاية لِمِثْلِي يقصدها من سعيه وجهاده ، إلا تجديد الرابطة بين المسلمين ودينهم ، واجتذاب الفارِّين منهم ، ليرجعوا إلى مُعاملة ربِّهم ؛ وتنبيه الغافلين منهم إلى الواجب عليهم .

ولا طريق يحقِّق لنا هذه الغاية السامية ، إلا أن ننظر : إلى أيّ حدّ وصل ضعفُ الرّوابط بين المسلمين والإسلام ، وما منشأ هذا الضعف وأساسه :

هل هو من الدِّين ، أو من المتديِّنين ؟

وإن كان من أحد الطرفين ، فما هى عناصره ؟

وما هى الطُّرق الكفيلة بالعلاج ؟

ولذلك سيكون بحثنا ـ إن شاء الله ـ مُنحصراً فيما يأتى :

أولا : إلى أىّ حدّ تأخّر الإسلام بين المسلمين ؟

ثانياً : هل فى الدِّين من خلل يُبرِّر انقطاع المسلمين عنه ؟

ثالثاً : وإذا كان الدين بريئاً من العَيْب ، فما عوامل انقطاع المسلمين عنه ؟

رابعاً : ما هى الطُّرق التى تكفُل إصلاح الحال ، بقدر الوُسع والطّاقة ؟

تلك هى العناصر الأوّلية للموضوع ـ نبدأ منها بالكلام على العنصر الأول ، مستعينين بالله عز وجل :

تعلمون ـ يا إخوانى ـ كما أعلم ، وتحسُّون كما أحسُّ : أن الإسلام الآن قد أصبح غريباً فى بلادنا ، خافتَ الصّوت جدًّا بين ظَهْراَنينا ؛ لا يهتمّ به أهلُه ومن يدّعُون اعتناقه والانتساب إليه !..

وجوْلة واحدة ـ بالنظر أو بالجسم ، حيثما تنقّلتم ـ تريكم أن : شعائره قد تقهقرت جدًّا إلى الوراء ؛ وأن ظِله يتقلص رُوَيْداً رويدا من القلوب ؛ وأن رُوحَه السامية السمحة ، وأحكامَه وتشريعاتِه الكافلة للسعادة : قد أصبحت سجينةً فى بُطون الكتب ، لا يُعمل منها إلا بالقليل ؛

لا يربط أكثرهم به إلا الأزياء والملابس والأسماء والمواسِم ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ـ تنطق بها الأفواه من غير تقدير لقيمتها ، أو إحساس بعظمتها ، أو عمل بمقتضاها !..

قارِنوا بين المساجد والملاهى ..

قارِنوا بين المُحاضِر الإسلامى والمغنّى .

وانظروا ـ بعد النِّسبة ـ بين المُقبلين على الخير ، والمُنصرفين إلى الشرّ ..

قارنوا بين أوصاف المؤمن وخِصاله الواردة فى القرآن ،

وبين ما أَلِفَه ومرن عليه الآن !..

قارنوا بين عصور الإسلام الماضية الزاهرة ،

وبين عصوره الحاليّة المحزنة المبكية ! .

قارنوا ، وانظروا بُعد ما بين الحالَيْن :

فتلك عُصور عِزٍّ !.. وهذه عصور مذلة ، وقهر ومسكنة !..

أُنظروا ـ رحمكم الله ـ التلمسوا بأيديكم أسباب ما نحن فيه من الذل والشقاء والاستعباد ؛ ولتعلموا أو تتذوقوا معنى قول الله عز وجل :

﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ ، فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

صدقَ اللهُ الْعَظِيمُ : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا ، وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

تلك صورة تُمثّل القليلَ من ضعف الإسلام فى النُفوس ،

نتساءل بعدها : ما الذى بَعُد بالمسلمين عن دينهم ؟ !

هل فى تشريعاته من نقص ؟ ! هَل فى تعليماته من خلل !

هل ظهرت فيه عُيوب اكتشفها المصريون ؛

بعد أن ظلت خفيّة طوال هذه القرون ؟ !

ألم يكن كافيًا لمعتنقيه ما تتطلّبه حياتهم ،

حتى احتاجوا إلى أن يطرُقوا بابَ غيره ؟

الجواب : كلا ، فمبادئه حقّة باعتراف أعدائه ..

وتشريعاتُه انساقت إليها الأمم مُرغمة ، وأدخلت الكثير فى قوانينها ، بعد أن عادَتْ حقبًا كثيرة ! ..

وهى فيما تركت أشد احتياجًا منها إلى ما أخذت ،

وسترجع إليها كلها مرغمة ، بعد التضحيات الكثيرة ! . .

ولو كان الدِّين ـ فى ذاته ـ ضعيفاً ، ما انتشر فى البلاد الخارجية ، يدعو إلى نفسه بنفسه ، ويفتح القلوب المُغلقة ، وينتصر على العقائد الزّائفة بين الفَيْنة والفينة ! : .

وأما وفاؤه بما تتطلبه حياة مُعتنقيه ، فهذه من أظهر مميزاته ، ومن أقـــوى دلائله وآياته . . وأتونى بشريعة قبله جمعت لمعتنقيها بين حاجة : الرُّوح والجسم ، وأوفت كُلًّا منهما بتشريع خاص ، بحيث لا يقتطِع من حقّ قرينه شيئاً .. هذا وربِّى من المستحيل ! . .

أُولٰئِكَ آبائِى ، فَجِئْنِى بِمِثْلِهِمُ
إذا جَمَعَتْنَا يا جَرِيرُ الْمَجَامِـعُ

وإذا لم يكن فى الدِّين ـ فى ذاته ـ دخْلٌ فى هذه الحالة المعيبة الفاضحة ، فمن أين أُتِىَ المتديِّنون فى دينهم ؟

وما السبب الذى صرف جُلّ المصريين عنه ، حتى صار الحال إلى ما نرى ؟ !

ذلك ما سنقوم بإيضاحه ـ إن شاء الله ـ تفصيلا ، وهو غرضنا الذى سُقنا المحاضرة لأجله . .

ولعلّنا لا نعدم آذاناً تُصغى وقلوباً تَعِى ما يُقال ، وتزن بمقتضاه ـ من أحوالها ـ ما هى أدرى به من كل أحد ! . .

ولعلنا لا نخطىء إذا أجملنا الأسباب كلها فى أمرين ، يندرج تحتهما جميع ما سيأتى تفصيله ، وهما :

(١) جهلٌ بما يَجِبُ ، مع الرِّضا به .
(٢) تقصير فى أخذ النفس بالعمل بما علم ، مع الاستمرار عليه .

* * *

وإليك تفصيلا وافيا فيما يندرج تحت هذين المُجملين من العوامل ، مع التعليق على كل منها بما فيه الكفاية والمُقنع .

الأول : أن المسلمين صُرِفوا عن تعرُّف دينهم ـ بمختلف الصَّوارِف التى يُدبَّر بعضُها فى الخَفاء ، وبعضها فى العلانية ـ فانصرفوا ، وحُرِموا من تغذية أرواحهم ، وتكميل نفوسهم بتعليماته النافعة ، ووصاياه الحكيمة وعِظاته البالغة ! . .

فالمتعلمون ـ وهم الذين كان يُنتظر منهم مُناصرته ومُؤازرته ـ صُرِفوا عنه ببرامج التعليم ، التى لم تترك فى نفس الطّالب ـ ولا من وقته ـ محلا لسواها ، ولا منفذاً لغيرها ! . .

بل يزرع بعضُها فى نفسه بُذور الإلحاد والشّك ، ويُنَشِّئه على كراهية الارتباط بالدِّين ، فيشُبُّ التلميذ ويشيبُ مسلما بالوِراثة ، قد خلَتْ نفسه من شىء اسمه : الإسلام ، لا يعلم عنه إلا ما شاع بين عائلته ، عِلما لا يُجدى ولا يُفيد ؛ والتَّبِعة فى ذلك واقِعَة ـ والله ـ على أبيه ، الذى لم يَرْعَ فيه قول الله تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا : قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ .

وأمّا العامّة والدّهماء ، فقد صُرِفوا عنه بأنواع اللهو واللعب ومختلف الشّهوات المحرّمة التي أُبيح لهم غِشيانها ، وسُهّل لهم سبيل الوصول إليها ، ولم يُؤخذ على أيديهم بما يردعُهم عنها ، ويكُفّهم عن قُرْبانها ، ويحملهم على العناية بدينهم ـ لا من آبائهم ، ولا من غيرهم ..

وطبيعيًّا لمّا انصرف هؤلاء وأولئك عن دينهم : جهلوه . .

ولما جهلوه : عادوه ، وعادوا أهله ، واستخفّوا بهم ! . .

وصار حالُهم مع دينهم ، كما قال الله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ

قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ،

وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ .

فتراهم إذا جلسوا بمجلس يُتلى فيه كلام الله ، أو تُبيَّن فيه أحكام الله ، أو يُذكّر فيه المسلمون بربهم . .

إذا جلسوا واضطروا إلى الجلوس ، لم يلبثوا أن تضيق حظائرُهم ، وتشمئزّ نفوسهم ، وتثقل بالنوْم رُءوسهم !.. وسرعان ما يتلمّسون طريقًا إلى الفِرار ، كأنما هم فى سِجن يُسامون فيه أشد العذاب ! ..

وأما إذا كانوا فى مجلس لهو أو باطل ، أو إلحاد فى دين الله ، أو فحش فى القول وبَذاء ، أو ما شا كل ذلك : تمنّوا أن لا ينقَلِبت الليل حتى لا يُفرّق النهار بينهم ، ويُنغّص عليه سرورهم ! ..

فقارن ـ بربك ، يا أخى ـ بين الحالتين ؛
وانظر هل لهم حق فى أن يقولوا : نحن مؤمنون ،
بعد أن نفى الله عنهم الإيمان ؟ ومن أصدق قيلا : الله أم هم ؟ !
ولعلك لا تختلف معى فى أن هؤلاء تُعساء جداً فى دينهم .
وإن كان أشدهم تعاسةً فى هذه الناحية : من إذا مرّوا
بمجلس من مجالس التعليم الإسلامية ، نظروا إلى
الجالسين فيه نظرة استخفاف وسخرية ، ثم انصرفوا :
﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ .
وانظر حُكم رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم على أمثال هؤلاء .. فعن أبى واقد الليثى ، قال :
(بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد ، إذ أقبل ثلاثةُ نفَر . فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فرأى أحدهم فُرْجَة فى الحلْقة فجلس .. وجلس الآخر خلفهم .. وأما الثالث فذهب مُدبراً .. فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ ؟
أَمَّا أَحَدُهُمْ : فَأَوَى إِلَى اللهِ ، فَآوَاهُ اللهُ .
وَأَمَّا الآخَرُ : فَاسْتَحْيَا ، فَاسْتَحْيَا اللهُ تعالى مِنْهُ .
وَأَمَّا الآخَرُ : فَأَعْرَضَ ، فَأَعْرَضَ اللهُ تَعالَى عَنْهُ . »
أى : أهمله وقطع عنه مدده ومعونته ، والعياذ بالله .

إنى لأعجب - ولعلك تعجبُ معى - من شخص ينتسب إلى الإسلام ، وهو لا يعلم عنه شيئاً ! . وإذا سأله سائلٌ : ما هو الدين الذى تدين به ، وما مبادؤه ؟ لم يستطع أن يُحِيرَ جوابًا ، أو يردّ خطابًا !.. وإذا حادثه شخص فى شأن الإسلام ، أسِفَ على تأخّره ، ونَقِم على أهله الذين أخّروه بتفريطهم ، وهو - فى اللحظة عينها - يعملُ على هدمه وانحطاطه بتقصيره فى القيام بواجباته ! .

أو لا ترى معى : أنّ هذا موقف مُخجل ، وتناقُض مَعِيب ؟ كان الأَوْلى بمن هو واقِع فيه أنْ يتداركه ؟ ولكنهم لا يخجلون ، لاستحسانِهم لما هُم عليه ، وعدم إحساسِهم بقُبحه !.

والآن أسُوق - إلى حضراتكم - صُوَرًا مما عليه الناس فى حياتهم ، نجعلها مقياساً ، نستنتج منه ما يأتى :

هل من العقل طرْح الثقافة الدينية ؟

وما نصيب المُعرِض عنها من الإيمان ؟

ولعل فيها ما يرجع المقصِّر عن تقصيره ، ويَحمِله على العناية بدينه .

أولا : نرى من يتصدّى لمهنة المحاماة مثلا - مع دراسته للقوانين بين جُدران المدرسة دراسة متكررة - لا يستغنى فى مبدأ الأمر عن مُراجعة القوانين ، واستفتائها فى مُرافعاته ، واقتنائه كل مؤلف يؤلف في القانون أو المرافعات ؛ حتى يضمن لنفسه موقفاً سليما من الانتِقاد عليه فيه ، ولا يمكنه أن يستقِلّ بمعلوماته الذاتيّة ، إلا بعد أن يشيخ ويهرم فى المِهنة . .

كذلك حال من يتصدّى لمهنة الطب ـ تجد أمامه المؤلفات على مكتبه ، يُراجعها كلما سنحت الفرصة ، ويضمُّ إلى ذلك الاختلاط بأمثاله ، ويجهد فى الاقتباس منهم بقدر المستطاع . .

وقِسْ على ذلك جميع الحِرف الفنية التى تُشابه ما ذُكِر .

وإذا كان هذا حال من سبق له التمرُّن على المهنة ، ودراسة أسرارها ، فكيف يكون حال المبتدئ فيها ؟

ثانيا : انتقل إلى الصِّناعات والحِرَف الأخرى ، حتى الحقير منها ـ ترى الداخل فيها محتاجا كل الاحتياج إلى الاختلاط بأهلها ، وتعرُّف مبادئها منهم ؛ وبدون ذلك لا يستطيع أن يسير فيها ويُزاولها كما ينبغى .. وإذا زاولها بدون هذه المقدمات ، كان سعْيُهُ ـ ولا بدّ ـ مُكلّلا بالفشل من أول خُطواته . .

ثالثا : وإذا تخطّينا دائرة المهن والصناعات ، التى تُعتبر من ضروريات الحياة ، إلى ضروب اللهو واللعب ، التى لا يُقصد منها إلا مجرّد التسلية ، وإضاعة الأوقات ـ نجد أن دراسة طُرُقها قبل الاندماج بين أفرادها ، أمر محتم لا بد منه ؛ وبدونها يكون المتصدّى لها أضحوكة بين أهلها ؛ وسرعان ما يُقْصُونه عنهم ، ويخرجونه من صُفوفهم .

ولذلك نرى الراغب فيها يبذل قصارى جهده ؛ بل ربما أضاع فى سبيلها وقتا ثمينا عليه ، وأنفق مالا هو فى حاجة إليه ، لينتظم فى سِلك الهواة ، ويعدّ من أبطال اللاعبين ..

فتفهَّم - يا أخى ، يرحمك الله - ما بسطتُه لك ،
وقِسْ عليه ما شابهه ، مما لا يقع تحت حصر ..
وأضف إليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :
« طَلَبُ الْعِلْمِ : فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ . »
وقول الله عز وجل :
﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ : إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ .
مما يُعلن فى صراحة : أن الإنسان لم يخلق لملء بطنه فحسب ؛
وإنما خُلِقَ لما هو أسمى وأرقى من ذلك ، وهو أن يعرف ربه
كما ينبغى ، ويعبده ويخضع له كما طلب منه . .
وإذا كان جاهلا : من يعبد ؟ وكيف يعبد ؟ وكيف يتمكن من أداء الأمر
على وجهه المطلوب ؟ هذا من غير شك فى طليعة المستحيل ..
تأمَّل ما بينتُه لك ، وقل لى : هل من العقل أن يضحى
فى مطالب جسمه بوقته كله ، ويضنّ على رُوحه بجزء منه ؟
وهلّا يخجل من نفسه إذا أعلن بين الناس إسلامه وتظاهر به ،
وهو لمّا يعرفْ منه إلا قشوراً لا تُسمن ولا تُغنى من جوع ؟
وهل يظن أن مجرد الانتساب إلى الإسلام ، والاكتفاء بالشهادتين
يُجديه فتيلا عند رب الإسلام : جل وعلا ؟ أو ما كان أجدر به
- وهو المسلم - أن يُسوِّى دينه بحرفته ، ويضحى فى سبيله
جزءاً - ولو قليلا - من وقته : الذى يُنفق الكثير منه جُزافًا ؟

ولست أدرى – والله – ما قيمة إيمان من يضنّ على دينه ، وعلى تغذية رُوحه – التغذية النافعة – ببعض من الوقت الذى يُنفقه فى سبيل ملء بطنه ، بل ببعض ما يقضيه فى لهوه وعبثه ؟ !

ومن الناس من يكون حاله أعجب ، وشأنه أغرب من سابقيه ؛ وهو من يبذل جهده ، ويضيع وقته فى الاطلاع على ما كتبه أعداء الإسلام ضد الإسلام من الأكاذيب والاختلاقات ، والسفاسف والأوهام التى لا يُقصد منها إلا تشويه حقائقه الناصعة ، وتغطية معالمه الظاهرة : يطّلع على ذلك ويبدأ به ، قبل أن يطّلع على شىء مما سطّره علماء الإسلام وأنصاره فى تأييده وتجلية محاسنه ، وإيضاح أسرار تشريعاته ، وإظهار حقيقة الأكاذيب والتدليسات والاختلاقات ، التى شوّه بها جماله الباهر فى أعين الجاهلين به .. وبعد أن يتسمّم فكره ويملأ الزيغ والباطل نفسه ، ويصبح عدوًّا لدينه قبل أن يتذوق الولاء والصداقة له ؛ يكون أحد رجلين : إما أن يَشنأ الإسلام ويعيبه بما قرأ وسمع ، ولا يقبل من قائل قولا ، ويكون مثله إذ ذاك كالذى قال الله فى شأنه :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْرًا ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

وإما أن يلتمس طريقاً إلى : زحزحة الباطل عن نفسه ؛ كان ممن عطف الله عليه وتداركه برحمته .. وهذا ـ والله ـ الخطأ كل الخطأ ، والقصر في الشاذ الأحمق الذى تقبّحُه الفِطَر الطيبة ، والعقول السليمة . إنما العقل والمنطق والفطرة والطبيعة البشرية : أن يغار الإنسان على مبدئه ، ويحمى أنفه لحزبه ، ويبدأ بالبحث عن براهينه ، واستيعاب أدلته .. وبعد أن تمتلئ نفسه به ، وترسخ عقيدته فيه ، لا بأس بأن ينظر لما قال الضدُّ فيه وما عابه به ليردّ الفِرْية ، ويُبطِل دعوة الكذب .

عَرَفْتُ الشَّرَّ لا لِلشَّرِّ لَـكِنْ لِتَلافِيهِ
وَمَنْ لا يَعْرِفِ الشَّرَّ مِنَ النَّاسِ يَقَعْ فِيهِ

وما عهدنا جندياً ينزل ميدان القتال قبل أن يأخذ حَيْطة ،
ويلبس درعاً يقيه رصاص أعدائه ! .. وليس من العقل :
أن تشرب السمّ ، ثم تبحث له عن تِرياق ! .
ولعل فى ذلك عِظة كبرى لكثير من المتعلمين ! ..

إن هذا ـ يا إخوانى ـ من أفتك الأمراض التى مُنِيَ بها الإسلام فى شخص أهله ، ومن أوسع أبواب الشر التى فُتِحَت عليهم ! ..
ولو استُؤْصِل هذا الداء ، وأُغلِقَ هذا البابُ ،
لوجدت الحال سرعان ما تغير تغيراً مدهشا ؛ لأن فى مناهل الإسلام العذبة الصافية ، وعِظاته وهَدْيه السماوى : ما يكبح أعظم النفوس جموحا ، ويستنهض أحطّ النفوس همة ..

والمُتتابع لسير الحوادث ـ من قديم ـ يرى أن اليد تلعب
فى الخفاء ـ بهمة ـ للوصول إلى هذه الغاية ، وقد وصلت إليها
فى كثير من النفوس ، وهى جادة فى القضاء على الباقين !..
وما دفعنى إلى الإفاضة فى هذا الأمر . إلا عظيم خطره
وكبير أهميته ، وأنه ـ فى الحقيقة ـ الداء المُضال ،
وما سواه ـ مما سيذكرون ـ متفرع عنه ..
* وثانى الأمرين : أن من علم شيئا من عقائد الإسلام ،
أو ألمَّ بنبذة من أحكامه وتشريعاته وفرائضه وواجباته ـ كثرت
معلوماته أو قلّت ـ تراه يكتفى من العقيدة فى الله بالشهادتين ؛
ومن العقيدة فى اليوم الآخر بمجرد
التحدث بما يكون هنالك من الأهوال ؛
ومن باقى الأحكام وفروع الإسلام بالمجادلة والقيل والقال ـ
بحيث إذا فتشت عليه ، وقِسْت أعماله بأقواله :
لم تجد أثراً لصحة ما يدّعيه من العقيدة والعلم ! .
ولست أدرى : ما قيمة العقيـــدة ،
إذا لم تظهر لها آثار على الجوارح والأعضاء ؟ !
وما مَثَلُه إلا كمثل بخيل يموت من الشُّحّ جوعا ، وخزائنه
مملوءة بالأموال ! . وإنك إذا رأيت شخصاً يمسك بيده
كأسا يقول عنه بأنه مسموم ، ثم يفرغه بعد ذلك فى جوفه ؛
لحكمت عليه توًّا بالجنون المُطبق ، الذى ليس بعده جنون !

وأنا أصارِحك القول : بأن ذاك ـ الذى نتحدث عنه ـ أحق من هذا
بوصف الجنون ؛ لأن نتيجة كأس السم ـ بالغة ما بلغت ـ
فقدُ الحياةِ الدنيوية ؛ وقد تكون بعدها راحته من متاعبها ومشاقّها . .
ولكن نتيجة الخروج على أوامر الله : الشقاء الأخروى وما احتواه
من العذاب والهوان ، الذى ربما طال أمَدُه كثيراً
بالآلاف من السنين ، حتى ولو مات مسلماً !..
وإن علما لا يُفيد صاحبه بشىء ، هو ـ فى الواقع ـ كالعدم ؛
ولذلك كان صلى الله تبارك وتعالى عليه وآله وصحبه وسلم يقول :
« اللَّهُمَّ : إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ . »
وقال صلى الله تبارك وتعالى عليه ـ وآله وصحبه ـ وسلم أيضا :
« كُلُّ عِلْمٍ : وَبَالٌ عَلَى صاحِبِهِ ؛ إِلَّا مَنْ عَمِلَ بِهِ . »
ومن الناس من يقع فى هذه البلوى ويرتكب هذه الجريمة
الدينية ، لأمور وأوهام يُفتى بها نفسه ، يظنها له ، وهى ـ فى الواقع ـ
لا تُفيده شيئا ، بل قد تكون حُجّة عليه .. وهذه الأمور
وإن تنوّعت أشكالها وكيفياتها ، ولكنها ـ فى الواقع ـ ترجع
إلى شىء واحد ، وهو : سيطرة النفس الشهوانية على العقل ، وتسلطها
على شعور الكرامة والإحساس بالمسئولية الدينية فى ضمائرهم . .
ولذلك نأتى بكلٍّ منها على حِدَة ، ونبيِّن وجهة الخطأ فيه ،
فنرى بعضهم : يتخذ مسألة القضاء والقدَر ـ تُكَأة ،
يستند إليها فى تبرير تساهُلِه المعيب ..

فإن كان من العامة وأشباه العامة ، قال لك إذا نصحته في دينه :
(لما يريد ربنا : أمشي كويس !..)
وإن كان من المتحذلقين ، قال لك :
(إنّ العبـــد لا فِعْل له ،
والإنسان مجبـــور لا اختيار له) ..
إلى آخر ما هنالك من الألفاظ الجوفاء التي تؤدي هذا المعنى ،
وإن كانت لا قيمة لها ولا ثمرة !..
وهـذا كلام خاطئ وسفسطة لا قيمة لها ، ولا يمكن أن تثبت ..
* أما المناقشة المعقولة ، لأننا نسأل من يقول هذا الكلام
- مع تسليمنا بأن الله قد كتب وقدّر كل شيء لجميع المخلوقات - :
أولا : هل علم هو ما كتب عليه بخصوصه من الخيرات والشرور ؟
الجواب : كلا . لأن ذلك من علم الغيب الذي استأثر الله به ..
ثانياً : هل إذا أراد النهوض إلى عمل من الأعمال
- وهو صحيح البدن - لا يستطيع ؟ الجواب : لا .
ثالثا : هل إذا أراد فعل خير من الخيرات : تتعاصى أعضاؤه عليه ؟
الجواب : لا .
رابعاً : هل إذا آذاه أحد من الناس - بضرب أو جرح - يتركه
ولا يقتصّ منه ، حيث كان لا فِعْل له ، كما يقول ؟ الجواب : لا .
خامساً : لماذا ينزوي في بيته ، ويترك السعي على أرزاقه ،
والبحث عن قوته ورزقه يأتيه ولا بد ، ليفعل ذلك
إن كان يعتقـد بالقضاء حقاً وينكر الأسباب بتاتاً !!

ولكننا نراه يجيبنا إلى هذا ! . بل ربما كان أشد الناس تفانياً
في التمسك بأسباب المعاش : من حِلّها ومن غير حلها !..
بل ربما غفل عن كلامه ، وما يدّعيه مبدأ له ،
وقال لنا : (إنّ الأسباب لا بد منها) . .
ولا غرابة ـ فمثل هذا : لا مبدأ له ؛ بل مبدؤه : شهوة نفسه !
وإذا كانت هذه الحجة الواهية لم تُنقذ صاحبها من لوم العقلاء ؛
فكيف تنقذه بين يدي الله غداً ؛ وهو القائل جل جلاله :
﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ .
هذا نوم عميق ، يجب أن يستيقظ صاحبه منه ويدرك نفسه ؛
ولا يخلص الإنسان إلا أن ينظر إلى أنه متصرّف تصريفاً مطلقاً
في جوارحه ، وأن المؤاخذة ستكون عليه بمقتضى هذا التصريف !..
فلينتفع به ـ بقدر الطاقة ـ تاركا ما وراء ذلك ؛
فليس من مصلحته : أن يقف عنده أو يشغل نفسه به .
وإن فرطت منه فارطة : فليُسرع ، وليُبادر بالاعتذار الصادق إلى الله
تبارك وتعالى ، ويستمرّ في طريقه الذي هو سائر فيه .
وترى البعض الآخر يلتمس لتقصيره أعذاراً واهية ، لا تنفع
إلا عنده ، ولا يليق أن يتلفّظ بها عبدٌ بإزاء أوامر سيده .
فتراه يعتذر عن الصلاة مثلا : طوراً بالمشاغل الكثيرة ، وطوراً بالمرض ؛
وعند الصوم : بأن البنية ضعيفة لا تتحمل وطأة الجوع ، وهلم جرّا !..

ترى له فى كل واجب من واجبات الدين - التى لا تروق
فى نظره - اعتذار خاص .. لو استفتى فيه ضميرَه الحقّ ،
لأفتاه بأنه لا يرتكن على أساس ! ..

ومثل هـذا تراه يتحمل - فى سبيل بعض مآربه النفسية ،
من المتاعب والمشاقّ - ما يتضاءل أمامه ما يفرّ منه فى سبيل
إرضاء ربه !.. وكيف يُقام لهذه الاعتذارات وَزْن أمام الله تعالى ؛
وهو قد أوجب عليه الصلاة ، حتى بإيماء الرأس ؛ بل بحركات
الجفون ، إذا منع المرضُ أعضاءه من التحرك !..

ولم يُبح له الفِطْر فى رمضان ، إلا إذا ظن - ظنًّا قريبًا
من اليقين - أن الصوم يُهلكه أو يعطل حواسّه !..

ومن الذى بلغ به الأمر إلى هذا الحد ؟

إننا لا نطلب من المسلم إلا أمرًا واحدًا فقط ، هو :
أن يُعطى مطالبَ ربِّه من العناية جزءا - ولو قليلا -
مما يعطى لشهوات نفسه ، وبذلك يكون سعيدًا والله .

وثالث : يكون تكاسُله ناشئًا عن الطمـع فيما لا مطمع فيه -
من الاتكال على رحمة الله وعفوه وغفرانه ، أو رجاء شفاعة
الرسول صلى الله عليه وسلم !.. وهذه الأمنية الكاذبة
قد بيَّنا خطأها ، وبُعدها عن الصواب فى مواقف كثيرة ..
ويكفينا الآن أن نورد - على مسامع حضراتكم - آيات من الكتاب
الكريم ، فيها الكفايةُ والمقنعُ لمن يريد أن يقتنع .

منها قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ،
وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ .
الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ
مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ،
يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ،
وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ،
وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ،
فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ
الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ، أُولَٰئِكَ هُمُ : الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

ومنها قوله تبارك وتعالى :

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ
فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ ؟

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا
السَّيِّئَاتِ : أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

فإنكم ترون فى الآية الأولى : بعد أن صرّح الله تعالى بسعة رحمته ، خصّصها بأقوام نبّه على صفاتهم المميزة لهم عن سواهم من البشر .

وفى الآية الثانية : صرّح الله تبارك وتعالى بنفى إمكان المساواة بين العاملين والمتكاسلين ، وبين الأخيار والمفسدين ، وتبايُن ما أعد للفريقين ؟

وفى الآية الثالثة : تندّد بمن يجول هذا الظن الخاطئ فى رءوسهم وأنه من القبح بمكان كبير ، لأنه يتنافى مع العدل الإلهى ؛ وإذا كان الشخص منا يُفرّق فى المعاملة ، بل فى المحبة والكراهية بين أنجاله وهم قطعة منه ، إذا كان البعض صالحاً والآخر عاقًا مفسدا ، فكيف ينتظر أن يكون هنالك غير ذلك ، وقد تطابقت النُصوص على مُوافقته ؟

ورابع : ضحكتْ عليه نفسُه ، وغرّر به شيطانه ، وساقه إلى الاغتراف من الشهوات المحرمة ، وارتكاب الموبقات ، بحجة أنه لم يزل شابًّا صغير السن ، ينبغى له أن يأخذ حظّه من الحياة وملاذِّها ، وهو فى شبوبيته ، ثم بعد ذلك يتوب ويرجع إلى الدين ، فيندفع فيها ويتوغّل استنادًا على ذلك ، وهذا حمق وجهل وطيش .

وإنا نُوَجّه إلى مثل هذا المغرور سؤالا ، نرجوه أن يجيب عليه من مشاهداته اليومية الشخصية ..

كم رأى من أشخاص اخْتَرَمَتْهُمُ المنية ، وجاءهم الموت وهم فى سن الشبوبية ؟ لعله يقول : كثيرا رأيت ..

ثم هل جرت العادة بأن هجمة الموت يسبقها إنذار وتتقدمها رُسُل ؟ ! الجواب : طبعا لا ..

ثم : كم رأى أفرادا ماتوا وهم دون سنّ البلوغ ؟ الجواب : كثيرا رأى ..

إذن .. فلم هذا الغرور والجهل وراء الأوهام ؟!
إنَّ خيرا لهذا وأمثاله : أن يرجع إلى عقله ،
ويترك هذه السفاسف إن كان يريد السلامة ، ويؤمن بأن
بعد هذه الحياة ، حياة أخرى يُكافأ فيها العاملون ..
وبعد هذا وذاك .. فتلك عُجالة من القول ، بسطتُها أمام
حضراتكم ، لنتعرف منها أدواءنا ، وأمراضنا الدينية . .
وإذا ما عرف الداء ، وكشف عن أصله ومنشئه ، كان من السهل
على من أحسّ بشدته وفتكه أن يهتدى إلى طريق علاجه . .
ويمكننا أن نلخص طريق العلاج فيما يأتى :
أولا : أن يهتم كل مسلم بتغذية رُوحه بتعاليم الإسلام ؛
ويخصص لها بعضا من وقته ..
وسيجد – فى المبدأ – أن نفسه تُنازعه الاستمرار . .
ولكن عليه الجدّ والمكابدة ، فستعقبها الراحة الكلية .
ثانيا : أن يعمل بما يعلم ، ويأخذ نفسه إلى ذلك بالعزم
والشدة فى مبدأ الأمر ، ويطرح كل الوساوس والأوهام
التى تعترضه فى هذا السبيل ، وللإمام علىّ – كرّم الله وجهه –
كلمة فى هذا الموضوع جميلة ، يقول فيها :
(إنْ جَهِلْتُ ، قِيلَ لِى : لِمَ جَهِلْتَ ؟
وَإنْ عَلِمْتُ ، قِيلَ لِى : ماذَا عَمِلْتَ فِيما عَلِمْتَ ؟)

ثالثاً : أن يعلم أن أبناءه وبناته مسئولون منه أمام الله عزّ وجل ، يحاسَب عليهم كما يحاسَب على نفسه .. فليُعَوِّدهم الدِّين من الصغر ، ويزرع الميل إليه فى نفوسهم وهم صغار .

رابعا : ألا يكتفى بنفسه وتجميلها بالتقوى فقط ..

بل يتعهّد أصدقاءه ومن يلوذ به النُّصح ،

إن آنَس منهم نفسا تتقبّل ..

وليكُنْ نُصحه برفق ولين ، ليكون أقرب إلى القَبُول .

أيها الإخوان :

إنى أناشدكم الله ، وقد علمتم واجب كل مسلم الآن ...

وما منكم إلا من هو أب لأبناء .. أو صديق لأصدقاء ..

أو أستاذ لطلبة يَغتَذُون منه المعلومات .. أو شخص يُدرك من نفسه ما لا يدركه غيره منها ؛ ولا يشاركه فى معرفته سواه .

نعم ، أستحلِفُكم بالله ، وأحَرِّك فى نفوسكم عاطفة الشفقة أو الحمِيّة أو الغيرة ، عن دين هو : شِعاركم الخاصُّ بين النِّحَل والأديان المختلفة ..

أستنهضُ همّتَكمْ ؛ وما أشدّ احتياجنا إلى تحمُّس للدين ؛

يوازى جزءا من تحمسنا للمبادىء السياسية أو غيرها ..

ليعملْ كلٌّ من ناحيته على الإصلاح ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا ..

وليبدأ بالإصلاح فى نفسه ، ثم فيمن حوله ، ومن ارتبط به برباط القرابة أو الصداقة ؛ حتى يبلغ عند الله عذرَه .

وليثِقْ أن الله معه : ما أخلص فى سعيه ؛ وأن سعيه : مشكور ، وعند الله : مقبول ؛ ولو : لم يصل إلى غرضه ! ..

﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ : مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ .

﴿ يَا قَوْمَنَا : أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ ،
يَغْفِرْ لَكُم مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ .
وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ ،
فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴾ .

وضعوا نُصْب أعينكم قول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ،
لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ،
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ
مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ،
وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

هذا ، وإنا نضرّع إلى الله تبارك وتعالى
ـ بصدق وإخلاص ـ : أن يُقيِّض للإسلام
من يأخذ بناصره . ويؤيد أحكامه وتشريعاته ..
وأن يُلهم أولي الشأن : العمل على ما فيه الإصلاح ،
ونُصرة كتاب الله ، وشرع الرسول صلى الله عليه وسلم ..
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

طُبِعَ على نفقةِ الجليلِ تبارك وتعالى

هديةً لحضرةِ النبيِّ المُصطفى :

سيّدنا : محمد

عليهِ وآلهِ وصحبهِ أفضلُ الصلاةِ وأتمُّ التسليمِ ..

داعِينَ المولى عزَّتْ وجلَّتْ قدرتُهُ :

أنْ تؤتِيَ سيِّدنا : محمدًا

الوسيلةَ والفضيلةَ والدرجةَ الرفيعةَ ،

وأنْ تبعثَهُ ـ اللهمَّ ـ مقامًا محمودًا الذي وعدتَهُ ،

الذي إذا سألَ أعطيتَهُ ، وإذا طلبَ أجبتَهُ ..

إنَّكَ سبحانكَ لا تُخلفُ الميعادَ .

* * *

غفر الله لنا ، ولوالدينا ، ولجميع المؤمنين والمؤمنات

والصلاة والسلام على سيدنا : محمد

خاتم الأنبياء والمرسلين

مطبعة الكيلاني

المدير المسئول : رشاد كامل كيلاني

٢٢ شارع غيط العدة - باب الخلق

ت ٩١٨٥٩٨

